أثر مؤلفات الشريف المرتضى في تطور الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري - دراسة تاريخية

أ.د. وجدان فريق عناد العارضي
مركز إحياء التراث العلمي العربي- جامعة بغداد
Wjdan_Fareeq@yahoo.com

الملخص:

كان الشريف المرتضى من الشخصيات التي سجلت حضورها التاريخي بحروف الأبداع الفكري، فهو صاحب مؤلفات عديدة يمكن للباحث فيها أن يجد ضالته، عما يبحث عنه من مادة علمية في جوانب مختلفة.

فغزارة المادة العلمية في مؤلفاته تجعل منه منهل غني للدراسات والبحوث التي لا بد من أن تأخذ طابع التخصص والأكاديمية، وذلك لأهمية مؤلفاته وعصره، والأثر الذي تركه في الحركة الفكرية في مسار الحضارة الإسلامية، إذ كان من نجوم تلك الحضارة الزاهرة.

The Influence of the Sources of Al-Sharif Al-Murtada in the Evolution of the Intellectual Movement in the 4th CenturyAH

(Historical Study)

Prof. Dr. Wijdan Fareeq Enad
Center Revial of Arab Science Heritage-University of Baghdad

Abstract

Sharif al-Murtada was a historical figure, He is the author of many works in which scientific material is important for scientific studies and research, Because of the importance of his writings and his age, and the impact he left in the intellectual movement was one of the stars of Islamic civilization .

المقدمة

كان الشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦ هـ) من الشخصيات التاريخية التي تركت أثراً واضحاً في التاريخ الإسلامي، وجاء ذلك من الآثار الجليلة التي أشارت إليها الأصول التاريخية، فهو فضلاً عن النسب الشريف، ذلك النسب المتصل برسول الله صلى الله عليه وآله سلم، كانت له المنزلة العلمية بسمعته الواسعة في الآفاق، أما منزلته الاجتماعية فقد تضافر النسب والعلم في أن يكون الوارث لأسرة تولى فيها أبويه لأمه وأبيه مناصب إدارية رفيعة منها نقباء وأمراء حج وولاة مظالم وسفراء ملوك ولهم الزعامة الدينية، والمكانة العلمية، علاوة على الصفات الشخصية التي تحلى بها من الخصال الحميدة وقوة الشخصية.

لذلك فإن الكتابة عن هذه الشخصية الكبيرة تعد من الموضوعات المشوقة، وذلك لطبيعة الشخصية وأهميتها، فضلاً عن مميزات العصر الذي عاش فيه، فكانت لها بصمات واضحة عليه.

لقد أثر الشريف المرتضى في الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري، من إسهاماته في علوم تفسير القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وعلم الجرح والتعديل، والفقه، وعلم الكلام، وعلوم اللغة العربية، والأدب، بما يبرز أثره الواضح في إحداث تغير في منحى التطور التاريخي لتلك العلوم، فضلاً عن دراسة تحليلية لأثر الشريف المرتضى على الحركة الفكرية.

وسيحاول البحث بيان ذلك في الأصول التاريخية ومعالجتها بالتحليل والاستدلال على وفق المنهج العلمي التاريخي، من أجل تكوين صورة عن أثر مؤلفاته في الحركة الفكرية، وكان السبيل لذلك الدخول مباشرة إلى الموضوع، متجنبين السرد في سيرته الذاتية، لما في ذلك من إطالة وابتعاد عن غاية البحث.

- أثرمؤلفات الشريف المرتضى[١] في تطورالحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري.

اتفق العلماء على أن القرن الرابع الهجري تميز ببلوغ العلوم الشرعية والفنون الأدبية أوجها من النضج والرقي والتكامل، مما كان لها أثرها في تكوين شخصية الشريف المرتضى الأدبية. وسوف نتناول إسهاماته

الأدبية من أثره في الحركة الفكرية في عصره، ومن ثم نحلل على وفق المنهج العلمي أسلوبه الأدبي، محاولين الوصول إلى سمات شخصيته الأدبية، والأسباب التي جعلت منه ظاهرة أدبية تستحق الدراسة والبحث، حتى غدا من أعلام عصره [٢].

أولاً : إسهامات الشريف المرتضى في الحركة الفكرية

يمكن تلمس تلك الإسهامات في مؤلفاته العديدة، التي تعكس بوضوح القدرة الأدبية لديه في تناول الجوانب المتنوعة من المعارف، فنجد له أثر في كل مما يأتي:

تفسير القرآن الكريم

في القرن الرابع الهجري برزت معالم مدرستين في تفسير القرآن الكريم، هما التفسير بالمأثور[٣]، والتفسير بالرأي[٤]، فقد كان لكل مدرسة مناهجها وأسسها. والشريف المرتضى انتفع من كلتا المدرستين، ويظهر ذلك فيما كتبه من تفاسير لآي القرآن الكريم، كما في كتبه الأمالي، والمحكم والمتشابه، والشافي، وفي كتبه الفقهية [٥].

١-الحديث النبوي

بلغ التأليف في الحديث النبوي الشريف ذروته في القرن الرابع الهجري من في الكثرة وعدد الرواة، إذ بلغ عند أهل السنة ستمائة الف حديثاً. أما عند الإمامية، فقد أخرج الكليني في الكافي الف وستمائة وتعسين حديثاً بأسانيدها [٦]، أما القمي فله أربعمائة كتاب في الحديث أهمها (من لا يحضره الفقيه) وبلغ عدد الأحاديث تسعة آلاف وأربعة وأربعين (٩٠٤٤) حديثاً [٧] . أما عند الطوسي وهو تلميذ الشريف المرتضى (ت ٤٦٠ هـ) في كتابه تهذيب الأحكام فقد اشتمل على ثلاثمائة وثلاثة وتسعين باباً، عدد الأحاديث فيها ثلاثة وعشرين ألف وخمسمائة وتسعين حديثاً، وفي كتاب الاستبصار بلغت تسعمائة وعشرين باباً فيها خمسة آلاف وخمسمائة وأحد عشر حديثاً، وهذه الكتب هي التي عولت عليها الإمامية[٨]. فكان عند الشريف ثروة من الأحاديث التي جعلت منه مصدراً مهماً، وظهر أثره في مؤلفات تلميذه الطوسي[٩].

٣-علم الجرح والتعديل

في نقد الرجال (علم الجرح والتعديل) كان أول من كتب في تاريخ المحدثين هو ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)[١٠]، من ثم الحاكم النيسابوري في القرن الرابع الهجري وهما من علماء أهل السنة [١١].

أما عند الإمامية فكان البرقي ومن ثم القمي، والفضائري، وابن عقدة، والنجاشي الذي ألف كتابه بناءً على طلب الشريف المرتضى[١٢].

كان علم الرجال في القرن الرابع الهجري قد أمد الشريف المرتضى بما اكتمل من تدوين الحديث سواء عند الإمامية أم غيرها، فكان بين يديه تلك الثروة التي مكنته من الفحص والتدقيق في أصحاب الحديث، فظهرت آثار ذلك في كتبه منها: الانتصار[١٣] والناصريات[١٤]. فقد رفض الشريف المرتضى الكثير من الأحاديث، ولاسيما تلك التي ظهرت فيها سمة الغلو أو التشبيه والجبر. فضلاً عن الطعن في الأحاديث غير الموثقة، التي بنظره لا تصلح أن تكون مصدراً للتشريع[١٥].

٤- الفقه

شهد الفقه في القرن الرابع الهجري انفتاحاً كبيراً في مجال الاجتهاد بشكل أكبر من القرون الماضية وفي المذاهب جميعاً، وأفاد الشريف المرتضى مما ألف في الفقه عند المذاهب الأربعة، وبما ألف عند الإمامية من كتب فقهية، فاستعمل اجتهاده الشخصي، وكتب في الفقه المقارن، وظهرت قدرته على الاجتهاد واستنباط الأحكام، وبينت اطلاعه الواسع على المذاهب الفقهية

المختلفة، وتمثل ذلك في أوضح صوره في كتابيه الناصريات[١٦]، والانتصار[١٧].

٥- علم الكلام

علم الكلام في عصر الشريف المرتضى كان له تأثير كبير وبرع فيه العلماء في كل المذاهب والفرق الإسلامية، وقد وقف الشريف المرتضى على أغلب كتب الكلام عند المعتزلة والأشعرية والإمامية، فظهرت في كتابه الأمالي، والفصول المختارة، وتنزيه الأنبياء[١٨]، والمحكم والمتشابه، وكتاب الشافي، جملة رسائله إلى أبي عبد الله، ويعد كتاب الشافي من أهم كتبه في علم الكلام[١٩].

٦- علوم اللغة العربية

انماز القرن الرابع الهجري فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية بضخامة القاموس اللغوي وسعة معاني مفرداته، وربما كان ذلك من الاقتباسات التي دخلت من الثقافات الأخرى، ومما جَدَّ من علوم إسلامية من الفلسفة وعلم الكلام ... الخ، فاقتضت استعمال ألفاظ لم تكن موجودة سابقاً، أما الميزة الثانية فهي تيسير تناول اللغة من المعاجم فقد وضعت معاجم مبوبة على حروف الهجاء، أو على أساس ما يجمع من المفردات من معنى واحد، فألفت معاجم كثيرة.

وانتفع الشريف المرتضى من تلك الظاهرتين، ويمكن ان تلمس ذلك في كتاباته، إذ يبدو منها المفردات اللغوية التي استعملها، ودقته في تحديد المفردة اللغوية والمعاني المجازية. ويبدو ذلك في تفسيره لمعاني المفردات في القرآن الكريم، وكذلك في تفسيره للحديث النبوي، وآثاره اللغوية في تفسير الشعر والنثر وشرحه... الخ. فهو لم يؤلف كتاباً في اللغة، ولكن يبدو علمه فيها من مؤلفاته التي وصلت إلينا [٢٠].

لم يؤلف الشريف المرتضى في النحو، ولكنه بما تطرق من بحوث نحوية يبدو على أنه كان نحوياً لا يقل أهمية عن النحاة المتخصصين بعلم النحو، إذ كان تفسيره للقرآن الكريم، والحديث الشريف، وتأويله، يبدو منه معرفة تامة بأصول الإعراب. كما أنه طرق أبواب من ابواب علم النحو، ولاسيما عند الكلام على حروف المعاني باستيفاء كامل وبدقة واستيعاب واضح.

كما إنه لم يلتزم بآراء أي من المدرستين النحويتين الكوفية والبصرية، بل انتفع من كليتهما في الغاية التي يطلبها، فضلاً عن ذلك فإنه مزج بين النحو والكلام وبين النحو والبلاغة بأسلوب فيه براعة. ففي كتبه نرى آراء كثير ممن سبقه من أعلام النحو، ويبدو من ذلك

قراءاته الكثيرة في كتب النحو، فضلاً عن مخالطته لمن عاصره من أعلام النحو مما له أثره البارز في كتبه [٢١].

كذلك لم يؤلف الشريف المرتضى في البلاغة بمعناها الدقيق، ولم يعرف برأي مستقل فيها، إلا أنه كان من أعلام البلاغيين في عصره، فلا بد له من معرفة وجوه الكلام وتأويلاته. ولا بد للمتكلم من التعرض للنصوص القرآنية ونصوص الحديث النبوي من أن يصرفها عن ظاهرها، وأن يذهب إلى وجوه الإعجاز لغوياً أو عقلياً أو كناية أو تمثيلاً، وهذه من أجل البحوث البلاغية التي دخلت في علم البيان. كما إن الشريف المرتضى تحدث عن علم المعاني، فقد تكلم عن الإيجاز والحذف في تفرقة دقيقة وعن التأكد والتكرار وعن الوصل والفصل، أما عن البلاغة بمعنى تلمس الجمال في النص الأدبي والموازنة بين المعاني والتعقيد على الناقدين، فالمرتضى كان في مقدمة الناقدين [٢٢].

فعلى سبيل المثال ذكر في كتبه تتبع الأبيات التي تكلم فيها ابن جني في أبيات المعاني للمتنبي (الشهاب في الشيب والشباب) وقد وازن بين ما قالت الشعراء في كثير من أبواب الأمالي، وكذلك لأحمد بن عبد الله بن عمار، وهو من القدماء الذين ألّفوا في الموازنات فيما وازن بين الشعراء وكذلك الصولي.

٧- الأدب

يظهر في مؤلفات الشريف المرتضى أنه كان قوي الحافظة، كثير الرواية، بما أخذه من كتب القدماء وبما رواه عن أساتذته، فهو لا يقل شأناً عن المبرد وأبي علي القالي، وابن الأنباري. فعلى سبيل المثال نجد أن كتابه الأمالي مليء بالروايات عن الأصمعي وابن السكيت وأحمد بن عبيد وأبي بكر العبدي، وعلى تاريخ الطبري، والبلاذري، وكذلك كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد.

كما أطلع على دواوين الشعر ولاسيما الحماسة، منها ديوان الحماسة لأبي تمام وحماسة البحتري، وترجم لشعراء المعتزلة والجبرية، وأطال في قصص المعمرين وأئمة الخوارج. أما عن أخبار الشعر ورواية القصائد فإنه ما ترك شاعراً ذا أثر إلا ذكره من عصر ما قبل الإسلام إلى عصره الذي عاش فيه.

كان الشريف المرتضى على جانب كبير من الدقة والقدرة الذهنية على النقد، فهو مستشار أمين وناقد فذ، لكل ما يبعث إليه من الرسائل والكتب العلمية، فهذا أحمد بن علي بن خيران الكاتب المصري الملقب بولي الدولة [٢٣]، كان يبعث بمؤلفاته ودواوينه الشعرية إلى

بغداد، لتعرض على أصحاب الشأن، لذلك أرسل ديوانه إلى الشريف المرتضى ليكون له ناقداً [٢٤].

وكان أبو منصور الشيرازي[٢٥] هو من حمل الديوان إلى بغداد، وكان في جزأين، إلا أن الديوان لم يصل إلى بغداد لأن الشيرازي مات في الطريق سنة (٤٤١ هـ)، إن في هذه الرواية إشارة الى ما بلغه الشريف المرتضى من المنزلة العلمية التي ذاع صيتها بين أهل العلم في الأقاليم الإسلامية، مع الأخذ بالنظر وسائل التواصل المعروفة آنذاك .

ثانياً: دراسة تحليلية لأثر الشريف المرتضى على الحركة الفكرية

ذكر الجيراني مؤلفات الشريف المرتضى، واعترف أن الإلمام بها شيء عسير، لأن كتبه متنوعة، كما أن مؤلفاته ترد فيه إحالة إلى كتبه الأخرى. وعند الحديث عن مؤلفات الشريف المرتضى، لا بد من الإشارة إلى نص إجازته إلى تلميذه أبي الحسن محمد بن محمد البصري التي يلتمس فيها من السيد المرتضى إجازته برواية كتبه التي تضمنه فهرست [٢٦].

ويمكن أن تقسم مؤلفاته على قسمين، وهما : ما كان طابعه ثقافي عام، ومنها ما كان أدبيا فنيا [٢٧]. ويبدو أن مؤلفاته متنوعة في الفقه والتفسير والكلام والفلسفة

الإلهية، ويغلب الفقه والكلام والأدب، وان معظمها كانت لخدمة الإمامية، ففي طابعها العام نجد فيها الجدية والحرارة في الغاية. فهو صاحب فكرة مجتهد في الدفاع عنها، وليس مجرد الطرح من أجل الجدل، وبهذه الناحية فهو مختلف عن الجاحظ وابن الراوندي، وأبو حيان التوحيدي.

كما يلاحظ عليها الاقتصاد في الأحكام الأدبية دون مغالاة في التقدير واستصدار الأحكام، فهو يشعر بمسؤولية أحكامه أمام الله والناس، وهو بهذا مختلف عن الثعالبي في يتيمة الدهر وابن بسام في الذخيرة.

أما الاتجاه فإن مؤلفاته كانت باتجاه عقلي يخالف أهل الظاهر والإمامية، فهي تمتاز بالاعتدال بالرأي، والأدلة الأصولية عقلياً ولفظياً في استنباط الأحكام، ويخرج بذلك على المحدثين والإخباريين من الإمامية.

والأداء فإنه يدخل مباشرة إلى الموضوع من دون تمهيد أو خروج، وإن استطرد مازجاً بين مسألة وأخرى، فإنه لا يبتعد عن الغرض، وإنما من أجل التوضيح، من ثم يعود إلى الموضوع الأساسي[٢٨].

ومن خلال القراءة والاطلاع على مؤلفات الشريف المرتضى يمكننا القول أن تلك المؤلفات غنية بثقافته وعلمه، ويبدو منها بوضوح خصاله العلمية، فقد حوت

على ذكر لمؤلفات قديمة استقى منها معلوماته، وهذه مزية لمؤلفات الشريف المرتضى، فبعض تلك المؤلفات غير مذكورة في المصادر التاريخية الأخرى.

فكانت مؤلفاته المصدر الوحيد لتلك الأصول المفقودة ومؤلفيها، ولاسيما الكتب المذهبية القديمة، فقد حرص الشريف المرتضى على انتقاء أفضل الكتب الموجودة في عصره، وعرضها بأسلوب فيه إبداع ووضوح، فضلاً على تبويبها، فكان حارس أمين وناقل لعلوم ومؤلفات لم تصل إلينا [٢٩]. وبذلك تكون لمؤلفات الشريف المرتضى قيمة تاريخية وحضارية، لكونها حفظت مؤلفات العديد من الكتب، التي فقدت لأسباب مختلفة .

فضلاً عن ذلك فإن تنوع العلوم التي كتب فيها جعلت مؤلفاته عند بعض الباحثين تصل تقريباً إلى مئة وعشرين مؤلفاً، بين الفقه والأصول وعلم الكلام والتفسير. فقد كتب في الفقه المقارن وهما مسائل الناصريات والانتصار اللذين تضمنا آراء المذاهب الإسلامية، والتركيز على مذهب الإمامية في تلك المسائل التي ذكرها الكتابين. ومن خلال ذلك كان الشريف المرتضى مجتهداً يناقش الآراء وينقدها بأدلة علمية، وفيهما تبدو قدرته الاستدلالية. بينما فقد ولم

يصل لنا كتابيه المصباح والخلاف، ويبدو من وصفهما المذكور في ثنايا بعض مؤلفاته الأخرى إنهما من روائع كتب الشريف المرتضى .

ومن الضروري الإشارة إلى أن أسماء بعض مؤلفاته التي وردت في المصادر التاريخية بأشكال فيها تحريف أو اختصار، فكان ذلك السبب الذي أدى إلى الاشتباه عند بعض الباحثين في مؤلفات الشريف المرتضى [٣٠].

وكانت مؤلفات الشريف المرتضى تعتمد الروائية والمنهجية، وقد وضعت منهجية للنص الإسلامي، وسعى إلى وضع صيغ للواقع التشريعي، فقد أحدثت المناهج الروائية انقلاباً واضحاً وعميقاً في البنية الروائية. من ذلك عدم حجّية الخبر الواحد، فمهد لصياغة عقلية واعية تدرك أهداف النص الشرعي على مختلف الجوانب الفكرية، كما إنه أسس منهجية واضحة للنص الإلهي يرجع إليها العقل عند الاشتباه والغموض، فكانت تلك الأصول المنهجية بمثابة السدود المنيعة للمحافظة على النص، فقد وضع آليات ومناهج لذلك مستندة إلى العقلانية، وكان الشريف المرتضى يعتمد منهجية عقلية تعتمد على العلم والمعرفة والدليل[٣١].

فالشريف المرتضى ربط بشكل متين وواضح بين المعطيات والمشتركات بين القرآن الكريم والسنة النبوية، اذ كان يعضد بعضه بالبعض الآخر، من أجل تركيز المفاهيم الإسلامية الصحيحة، فيأتي بالحديث ويعضده بالقرآن وبالعكس[٣٢].

ومن كتب الشريف المرتضى المهمة كتاب الأمالي، وهو من الكتب المهمة في حقل الأدب والتاريخ والتفسير والرواية، وفيه مجالس عن تأويل الآيات التي تعد صورة لتفسير القرآن الكريم عند المعتزلة، فضلاً عن مجموعة من الأحاديث، وبعض الموضوعات عن مقاصد شعراء العربية في الجاهلية والإسلام، فكان ذلك الكتاب بفنونه المتنوعة وفصوله المختلفة مصدراً ينقل عنه العلماء والأدباء[٣٣].

وكتاب الأمالي هو مجموعة من المجالس المتنوعة، أملاها على طلبته في حقب زمنية مختلفة، حوت أكثر من موضوع، منها إنه اختار فيها بعض من آي القران الكريم، اذ يسال السؤال ويثار فيه الإشكال. فضلاً عن انه عالج تأويله على طريقة المعتزلة أو أصحاب العدل كما كان يسميهم. وكان الغالب عليه عرض الوجوه المختلفة والآراء المحتملة مجوزاً الأخذ بالآراء جميعاً،

فكان الكتاب صورة لتفسير القرآن الكريم عند المعتزلة مما لم يصل إلينا من كتبهم إلا القليل[٣٤].

كما إنه أختار مجموعة من الأحاديث التي اختلف العلماء في تأويلها، فحاول تفسيرها بالمنهج الذي عالج فيه تأويل آي القرآن الكريم، واستعان باللغة وشواهد الشعر، موضحاً مذهب أصحابه من أهل العدل وأدلتهم على من خالف تأويلهم من أهل السنة والجبر وغيرهم، وناقش ابن قتيبة وأبا عبد الله بن سلام، وابن الأنباري في ذلك على وجه الخصوص[٣٥].

من ثم عرض مسائل في علم الكلام مما استجد فيها الرأي ودار بشانها الجدل، واختلفت الآراء والأدلة فيها، فكثرت المناظرات منها : رؤية الله، وحق أفعال العباد، وإرادة الله للقبائح، والقول بوجوب الأصلح، وغيرها. فكان من سماته في الجدل أنه رقيقاً عفيفاً في المقال من دون استهجان وتهجم[٣٦].

أما عن كتاب الذريعة فهو من كتب أصول الشريعة ولاسيما في أصول الفقه الإمامي، وكل ما كتب قبله كان فصول متناثرة، فهو منظومة أصولية مستقلة مكون من أربعة عشر باباً، تحدث فيها عن الأمر والنهي، والعموم والخصوص، والمجمل والمبين والنسخ والإجماع والقياس، وغيرها. وبينت عمق آراء الشريف

المرتضى، إذ ذكر أنه فصَّل فيه بين علم الكلام وعلم الأصول، كما إنه كتب بأسلوب معتدل في الفقه لا ينتهي بتطويل فيؤدي إلى الملل، ولا إلى الاختصار، فيقود إلى الإحلال، بل هو لسد الحاجة في مسائل الخلاف بالاستيفاء والاستقصاء، وكان ذلك الكتاب محط عناية العلماء[٣٧].

وأهمية الكتاب ترجع إلى أنه أؤرخ لمرحلة مهمة في التدوين، لأن الشريف المرتضى بين ما هو من أصول الفقه، وما هو من أصول العقائد، وقبل ذلك كانت أصول الفقه مزيجاً بين الاثنين، فضلاً عن إنه أول كتاب في أصول الفقه الإمامي، وقبل ذلك كانت مسائل متفرقة تعتمد في مصادرها على أصول فقه أهل السنة[٣٨].

ولابد من ذكر كتابه الذخيرة في علم الكلام الذي هو تتمة لكتاب الملخص، فهو مصدر وركيزة في علم الكلام ولاسيما الإمامي، فقد شمل الأبواب الكلامية من التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد، وما يتصل بها من سائر المسائل في كتب علم الكلام، واحتوى أنواع من الأخبار، ومنهج الخبر المتواتر، والقياس المنطقي في الأدلة الاعتقادية، والاتفاق على أصل الخبر، والاختلاف في التأويل[٣٩].

أما عن رسائله فكانت في مجاميع أربعة فقد ضمت مادة غنية في المباحث المنهجية في العلوم العقائدية، وعلى سبيل المثال لا الحصر: المسائل العلمية، ترك التأويل، العمل بالظواهر، منطق الأخبار، وغيرها، وفي تلك الرسائل لم يخالف الشريف المرتضى أسسه المنهجية في البحث والعرض.

أما كتاب الشافي فكان فريداً في بابه، فقد عالج موضوع الإمامة من الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية بدليل عقلي، وبين أنها ضرورة دينية واجتماعية[٤٠]. وهو رد على كتاب المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي، الذي يعد موسوعة ضخمة وعلمية ولاسيما في الإمامة، إذ أورد فيه ما اعتمد عليه شيوخه مع زيادات عليها، وفيه أفضل أنواع الرد والمناظرة. ومن الأمور التي تذكر له أنه كان يجمع بين المناقشات السندية والدلالية، ولا يقتصر على أحدهما، كما إنه واكب الحركة العلمية في عصره وجعلها أحد ركائز في منهجه البحثي. فكان كتاب الشافي صورة لثقافة الشريف المرتضى الأدبية والتاريخية، وتقرأ فيه الفروق بين الزيدية والإمامية، والإمامية والمعتزلة. وهو صورة لعلم الكلام والجدل في القرن الرابع الهجري. كما عكس تمكنه من اللغة العربية وأقوال العلماء فيها، فضلاً عن

دقته التاريخية في تناول الأخبار، فعنده إن بعض الأخبار صحيحة، ولكن حصل فيها قطع أو إضافة، ومن هنا جاء التمويه فيها[٤١].

ويعد كتابه في مقدمة الأصول من الكتب المهمة في أصول العقائد الإمامية من التوحيد والعدل والإمامة والمعاد والوعد والوعيد. وناقش بعض آراء المعتزلة في إيجاز بالغ وأهميته ترجع إلى تصوير عقيدة الإمامية في تلك المسائل[٤٢].

أما عن كتابه تنزيه الأنبياء فهو من الكتب النادرة في التراث الإمامي، فقد أوّل في هذا الكتاب والأحاديث الدالّة على وقوع ذنوب كبيرة أو صغيرة من الأنبياء والأئمّة (عليهم السلام) بتأويلات حسنة، عن الذنوب والقبائح كلّها، والردّ على من خالف في ذلك على اختلافهم وضروب مذاهبهم، هو يمثل نقطة خلاف جوهرية بين الإمامية والمعتزلة، فالإمامية يذهبون إلى أنه لا يجوز على الأنبياء والأئمة شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أم صغيراً، والمعتزلة يحيلون على الأنبياء وقوع الكبائر والصغائر المستخفة قبل النبوة وفي حالها، ومع أنه كتاب في علم الكلام، إلا أنه يعد من كتب الأدب، لما احتواه من مسائل النحو والبلاغة واللغة[٤٣].

ولا يمكن إغفال كونه شاعر كثير الشعر، وله ديوان يزيد على ثلاثة آلاف بيت[٤٤]، كما يبدو من استقراء مؤلفاته تمسكه بأخبار أهل البيت (عليهم السلام)، فكان المدافع عن تراث الإمامية الذي وقع تحت ظلم الأقلام المستأجرة، فأطلقت عليه التهم ومنها المغالاة، فكان يفند تلك التهم[٤٥]، وهو أول من بسط كلام الإمامية في الفقه، وناظر الخصوم، واستخرج الغوامض وقيد المسائل[٤٦].

إن المتتبع لحياة الشريف المرتضى العلمية يجد عدد من العوامل تضافرت على أن يكون بتلك الشخصية العلمية المؤثرة في الحركة الفكرية في عصره، ومن البديهي أن تكون المؤهلات الذاتية التي يمتلكها في المقدمة، من ثم الأساتذة الذين أخذ عنهم العلم[٤٧]، والمناخ العلمي حيث بغداد واحدة من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي آنذاك، كما أن وفرة المكتبات والكتب في مختلف صنوف العلم، جعلت من الشريف المرتضى شخصية جامعة للخصال الحميدة محبة للعلم ومشجعة عليه، فكان له أثر في عصره ومجتمعه .

وفي البحث ركزنا على أثره الفكري كونه عالم واسع المعرفة، تميز بالدقة والحرص والبلاغة والإبداع في أثراء مؤلفاته التي تنوعت واختلفت عنواناتها

وموضوعاتها، ومن تلك المؤلفات يمكن أن نلتمس مواطن الأصالة والتجديد في تناول الموضوع وأسلوب عرضه، والأدلة العلمية والعقلية التي يعتمد عليها في إدارة مناهج مؤلفاته .

الخاتمة

لقد توصل البحث إلى عدد من النتائج منها :

إن الشريف المرتضى كان شخصية تاريخية تستحق الدراسة والبحث، فمن مؤلفاته يمكن للباحث في العلوم المختلفة أن يجد ضالته، فهو مرآة للعصر الذي عاش فيه. فهو فضلاً على المكانة العلمية، كانت له منزلة اجتماعية، فله نقابة الطالبيين، وإمارة الحج، والإشراف على المظالم وديوان الإنشاء، والإشراف على المكتبة العامة ببغداد. وتميز بخصال حميدة فكان موصوفاً بالورع والتقوى، وكان غنياً سخياً يجري الرواتب الشهرية، مساعداً للفقراء.

وهذا البحث ركز على أثره في الجانب الفكري، فالشريف المرتضى كان شخصية موسوعية، فهو مفسر للقرآن ومحدث ثقة، ومتكلم تقدم على أقرانه في علم الكلام، وكان فقيهاً عارفاً بأصول الفقه، متمكن من الأدب، وعلوم اللغة العربية والنحو، وشاعر عارف فيه .

وكان يستنبط الأحكام لمعرفة تفسير الآيات القرآنية بطريقة استقرائية رائدة، فسجل له السبق التاريخي بذلك، وكان عالماً في الشعر ومعانيه، وباللغة العربية الفصحى ولهجات العرب. وكان نحوياً لغوياً بلاغياً أديباً شاعراً، وناقداً لكل النصوص العلمية والأدبية والشعرية.

كان يتقدم المتكلمين، فهو ضالع بعلم الكلام والجدل، يفحم الخصوم بالمناظرات العلمية، حتى كان له كرسي علم الكلام الذي لا يعطى إلا إذا كان على قدر كبير من العلم والحنكة والتجربة.

إن غزارة المادة العلمية عن الشريف المرتضى تجعل منه مادة مهمة للدراسات والبحوث التي لابد من أن تأخذ طابع التخصص والأكاديمية، وذلك لأهمية مؤلفاته وعصره، والأثر الذي تركه في الحركة الفكرية في مسار الحضارة الإسلامية، فكان من نجوم تلك الحضارة الزاهرة .

هوامش البحث

[١]- ينظر عن حياة الشريف المرتضى : الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ) . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة،(القاهرة،١٣٧٧هـ)؛ ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ) . جامع الأصول من أحاديث الرسول، تحقيق عبد الحليم سليم ومحمد حامد الفقي، مطبعة السعادة، (القاهرة، ١٩٤٩)؛ اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨ هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مطبعة مؤسسة الأعلمي، (بيروت ، ١٩٧٠)؛ ابن كثير ، عماد الدين بن إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ). البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، (القاهرة، ١٣٢٨هـ)، ج ١٢، ص ٥٢؛ ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). لسان الميزان، مطبعة مؤسسة الأعلمي، (بيروت، د.ت)، ج١٢، ص ٣١٣؛ ابن تغرى بردي، أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) . النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٣٠)، ج٤، ص ٢٢٦.

[٢]- ينظر عن مكانته العلمية: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٥٦ هـ) . تاريخ بغداد مدينة السلام، مطبعة السعادة، (القاهرة،١٩٣١)، ج١١، ص ٤٠٢؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) . المنتظم في أخبار الملوك والأمم، مطبعة الدار الوطنية، (بغداد، ١٩٩٠)، ج٣، ص ١٢٠؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ). تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، (القاهرة، ١٩٥٢)، ص٤٢٥؛ ابـن عنبة، حمد بن علي بن عنبة الحسيني (ت ٨٢٨ هـ). عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ط ٢، (النجف، ١٩٦١)، ص ١٩٤؛ البحراني، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٢٦هـ). لؤلؤة البحرين، مطبعة الحيدرية، (النجف، د.ت)، ص ٢٥٩.

[٣]- وهو تفسير القرآن بالقرآن نفسه، وبالسنة وبالآثار عن الأئمة والصحابة والتابعين. وقيل في تعريفه : "التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول والآثار الواردة في الآية فيذكرها. ينظر : ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء (ت ٧٧٤ هـ). تفسير القرآن الكريم، مطبعة بيروت، (بيروت، د.ت)، ج١، ص ٣.

[٤]- وهو التفسير بالاستنباط والاجتهاد. ينظر: أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، ١٩٥٦)، ج١، ص ١٢٩.

٥- سعيد نعيم جابر، منهج الشريف المرتضى وموارده في كتاب الأمالي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، ٢٠٠٦، ص٥٢-٥٧؛ الحاكم، محمد بن عبد الله . مستدرك الوسائل، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، (حيدر آباد- الدكن، ١٣٤٠هـ)، ص ١٦، ٥١٦؛ ينظر: المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (القاهرة، ١٩٥٤)؛ الشافي في الإمامة ، تحقيق عبد الزهرة الخطيب الحسيني، مطبعة مؤسسة الصادق، (طهران، ١٩٨٦).

٦- ينظر : الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩ هـ). الكافي، مطبعة الآداب، (النجف، ١٣٩١).

٧- ينظر: القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤ هـ) . أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، (القاهرة، ١٩٥٢) ، ج٣، ص ١٦٤؛ الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت ١١٠٤ هـ). أمل الآمل، تحقيق أحمد حسين، مطبعة الآداب، (النجف، ١٢٨٥هـ)، ج٢٣٣/٢.

٨- نعيم سعيد جابر، منهج الشريف المرتضى، ص ٥٨؛ ينظر : ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠ هـ) . الكامل في التاريخ، مطبعة بولاق، (القاهرة، ١٨٧٦)، ج٨ ، ص ٤٢١؛ القمي، عباس محمد رضا (ت ٨٣٧ هـ). الكنى والألقاب، (صيدا- بيروت، ١٣٥٧هـ)، ج٢، ٤٤٥؛ الطهراني، آغا بزرك . التعليق على منهج المقال، مطبعة المكتب الإسلامي، (طهران ، ١٣٨٦هـ)، ص ٣٢٦.

٩- ينظر: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ). الرجال، مطبعة الحيدرية، (النجف، ١٩٣٧).

١٠- هو الشيخ أبو محمد عبد الرحمن (ت ٧٢٧ هـ) صاحب كتاب الجرح والتعديل، ينظر: ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) . معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث، مطبع دار المأمون، (القاهرة، ١٩٣٨)، ج١٨، ص ١٥٤.

١١- هو محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) صاحب كتاب المستدرك، ينظر : ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) . وفيات العيان في أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر، (بيروت، ١٣٧٧ هـ)، ج٢، ص٢٧.

١٢- ينظر: النجاشي، أحمد بن علي بن أحمد النجاشي (ت ٤٥٠ هـ). مطبعة بومبي، (بومبي، ١٩٣٧)؛ الاسترابادي، محمد بن الاسترابادي (ت ٩١٢ هـ). مطبعة طهران، (إيران، د.ت) ؛ الحلي ، الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (ت ١١٢٥ هـ) . الرجال ، (طهران، ١٣٨١هـ).

١٣- ينظر: الشريف المرتضى ، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). الانتصار، مطبعة طهران، (إيران، ١٣١٥هـ).
١٤- ينظر: الشريف المرتضى ، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). الناصريات، مطبعة طهران، (إيران ، د.ت).
١٥- ينظر: المامقاني، الحسين بن عبد الله النجفي (ت ١٣٢٢ هـ). تنقيح المقال في أحوال الرجال، مطبعة الآداب، (النجف، ١٩٠٥)، ص ٣٠؛ نعيم سعيد جابر، منهج الشريف المرتضى، ص ٥٩-٦٠ .
١٦- ينظر: الشريف المرتضى، الناصريات، مقدمة الكتاب.
١٧- ينظر : الشريف المرتضى، الانتصار، ص ٣ ؛ محمد أبو زهرة، الفقه على المذاهب الخمسة، مطبعة التمدن الإسلامي، (القاهرة، ١٩٥٥)، محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، مطبعة الغري، (النجف، ١٩٦٢)، ص ٦٥.
١٨- ينظر : الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). تنزيه الأنبياء، مطبعة طهران ، (طهران، د.ت).
١٩- نعيم سعيد جابر، منهج الشريف المرتضى، ص ٦٣-٦٤.
٢٠- المرجع نفسه ، ص ٦٥-٦٦ .
٢١- المرجع نفسه، ص ٦٧-٦٨ .
٢٢- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة في النحو، مطبعة الاستقامة، (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ١٧٧.
٢٣- هو أحمد بن علي بن خيران الكاتب المصري صاحب ديوان الإنشاء (ت ٤٢١ هـ). ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ٥.
٢٤- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/ ٥٠٦.
٢٥ - هو أبو منصور أحمد بن موسى الشيرازي (ت ٤٤١ هـ). ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٠١/٣.
٢٦ - الجيراني، عبد الله أفندي، رياض العلماء وحياض الفضلاء، المطبعة الحجرية ، (إيران ، د. ت) ، ص ٤٨٠.
٢٧- إن مؤلفات الشريف المرتضى كثيرة جداً وذكرها جميعاً سيأخذ مساحة كبيرة من البحث . لذلك سنكتفي بالإشارة إلى أبرزها في متن البحث. للاطلاع على مؤلفات الشريف المرتضى . ينظر: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (استانبول، ١٩٤١)، ج١، ص ٧٤٨، ٧٩٤.
٢٨- نعيم سعيد جابر، منهج الشريف المرتضى، ص ٩٩.
٢٩- وسام الخطاوي، المناهج الروائية عند الشريف المرتضى، دار الحديث، (قم ، ١٣٨٥)، ص ٤١.

[٣٠]- المرجع نفسه، ص ٤٢.
[٣١]- وسام الخطاوي، المناهج الروائية، ص ٥٩- ٦٠.
[٣٢]- المرجع نفسه، ص ٨٨.
[٣٣]- ينظر: المرتضى، أمالي المرتضى، ج١، ص١٨ وما بعدها.
[٣٤]- أحمد أمين، ضحى الإسلام، ١/ ١٢٤.
[٣٥]- الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، ١٣/١.
[٣٦]- المصدر نفسه، ١/ ١٠١.
[٣٧]- الشريف المرتضى ، علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). الذريعة إلى أصول الشريعة ، تحقيق أبو القاسم كرجي، (طهران، ١٣٤٦هـ)، ج١، ص ٢-٤؛ الشريف المرتضى، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الأولى، (قم، ١٤٠٥هـ)، ص٣٣-٣٩ ؛ وسام الخطاوي، مناهج، ص ١٣٠- ١٣٣.
[٣٨]- الشيرازي، أبو إسحاق يعقوب بن محمد الشافعي (ت ٤٦٧ هـ). طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر، (بيروت، ١٩٦٥)، ص٤١٧؛ أغا بزرك ، التعليق على منهج المقال، ص ٣١٣؛ نعيم سعيد جابر، منهج الشريف المرتضى، ص ٨٥.
[٣٩]- ينظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ) . الذخيرة في علم الكلام، (طهران، د.ت)، ص ٦٠٧.
[٤٠]- ينظر : الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة، ج١، ص ١٩.
[٤١]- وسام الخطاوي، المناهج، ص ٢٦٣، ٣٠٤، ٢٩١، ٣٠٦.
[٤٢]- المرجع نفسه، ص ١٨١.
[٤٣]- الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء، ص ٢٠ وما بعدها ؛ وسام الخطاوي، المناهج الروائية، ص ١٧١.
[٤٤]- الشريف المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ). ديوان الشريف المرتضى، تحقيق رشيد رضا الصفار ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٣/ ١٤٧.
[٤٥]- وسام خطاوي، المناهج الروائية، ص ٣٠٩.
[٤٦]- ابن حجر، لسان الميزان، ٤/ ٢٢٣.
[٤٧]- يروي الشريف المرتضى عن شيوخه ومنهم : أستاذه المفيد، التلعكبري، وابن بابويه، والمرزباني، وابن جنيقا، وعن أبي الحسن الكاتب، وغيرهم. ينظر: محمد حسين الصدر، تأسيس الشيعة، مطبعة الغري، (النجف، ١٩٥٠).